الباب الثاني

في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان

اعلم أن الله عز وجل قال في القرآن المبين: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (سورة الفجر: ٦- ٨) حكى الشعبي في كتاب «سير الملوك» أن الملك شداد بن إرم بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (سورة فصلت: ١٥) وأن الله قد بعث إليهم هودًا النبي عليه السلام فدعاهم إلى الله عز وجل وعبادته وطاعته فقال شداد: إن آمنت بإلهك ماذا لي عنده؟ فقال هود عليه السلام: يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب، فيها قصور من ذهب، عليها غرف من ذهب، من فوقها غرف من ذهب، ويواقيت ولؤلؤ، وأنواع الجواهر، قال شداد: فأنا أبني في هذه الدنيا مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدني بعد الموت.

قال كعب الأحبار رضي الله عنه: إن الله تعالى وصف قصة إرم ذات العماد في التوراة لموسى عليه السلام وصفة بنيانها[1] قال: أمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضًا واسعة كثيرة المياه طيبة الهواء بعيدة من الجبال ليبنى عليها مدينة من ذهب، قال: فخرج الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من جنده وحشمه وطلبوا في أرض اليمن حتى وصلوا إلى جبل عدن، فرأوا هنالك أرضًا واسعة كثيرة العيون طيبة الهواء كما أمرهم به الملك شداد، قال: فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها[2] أربعون فرسخًا كل وجه عشرة فراسخ فحفروا الأساس إلى الماء وبنوه

(١) انظر في ذلك: المستطرف ص ٥٤٣.

(٢) دورها: محيطها.

بحجارة الجزع اليمانى حتى ظهر على وجه الدنيا، ثم بنوا فوقه بلبنات الذهب الأحمر سوراً علوه خمسمائة ذراع فى عرض عشرين ذراعًا.

وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب واتخذه لبنًا ولم يترك فى يد أحد من الناس فى جميع الدنيا شيئًا من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى فى باطن المدينة ثلاثمائة ألف قصر وستين ألف قصر، فى كل قصر ألف عمود من أنواع الزبرجد واليواقيت معقود بالذهب، طول كل عمود مائة ذراع، ومد على الأعمدة ألواح الذهب والفضة، وبنى على الألواح قصوراً من ذهب من فوقها غرف من ذهب ومن فوق الغرف غرف أيضًا، وجميع ذلك مزين بأنواع اليواقيت والجواهر، وجعل فى طريق المدينة أنهاراً من ذهب وجعل حصاها اليواقيت والجواهر وأنواع الزبرجد واللآلئ، وجعل على شطوط تلك الأنهار أنواع النخيل والأشجار جذوعها من الذهب، وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلئ، وجعل للمدينة أربعة أبواب كل باب علوه مائة ذراع فى عرض عشرين ذراعًا كل ذلك بالذهب مزينًا بأنواع اليواقيت والجواهر، وجعل حصباء المدينة من أنواع الجواهر.

ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة، كل منارة طولها خمسمائة ذراع من ذهب مزينة بأنواع اليواقيت والجواهر، فى كل وجه من وجوه المدينة خمس وعشرون ألف منارة من ذهب برسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فتم بنيانها فى خمسمائة عام، فلما فرغوا من بنيانها سيروا إلى مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا فى البلاد بسطا وستوراً وفرشًا من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف التى فى إرم ذات العماد، واتخذوا أنواع الأوانى والأطباق والقصاع والموائد والمناثر والسرج والقدور والهواوين والحباب والكيزان وجميع ما يحتاج إليه فى الدنيا من أنواع الذهب، ففرغ ذلك فى عشر سنين، فزينت المدينة بالفرش والستور والآلات واتخذ فيها أنواع الأطعمة والأشربة والأنقال والحلاوات والطيب والشموع والبخور بأنواع العود والعنبر والكافور.

فلما فرغوا من ذلك كله خرج الملك شداد فى ألف ألف جارية حسان عليهن أنواع الحلى والحلل سوى الخدم والحشم، وخلّف على مملكته ابنه مرشد بن شداد، وكان أكبر أولاده وأعقلهم وأحسنهم سياسة وأحبهم إلى الرعية، قال فلما أشرف شداد على مدينة

إرم ذات العماد ورآها أعجبه ما رأى من حسنها وإتقانها، فقال: قد وصلت إلى ما كان هود يعدنيه بعد الموت وقد حصلت عليه فى الدنيا، فلما أراد دخول المدينة أمر الله تعالى ملكًا من الملائكة فصاح بهم صيحة الغضب فقبض ملك الموت عليه السلام أرواحهم فى طرفة عين فخروا على وجوههم صرعى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (سورة النجم: ٥٠) وأخفى الله المدينة عن أعين الناس فيرون فى الليل فى تلك البرية التى بنيت فيها إرم لمعان الذهب واليواقيت التى للمدينة تضىء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هنالك شيئًا ورأوا ذلك الضوء فى مكان آخر وقد دخلها رجل من أصحاب النبى ﷺ يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى، خرج فى طلب إبل له ضلت فما زال يقتص آثارها حتى وصل إلى جبل عدن، فظهر له سور مدينة إرم ذات العماد، فلما نظر إلى سورها يلمع ذهبًا أحمر مرصعًا بأنواع اليواقيت ورأى تلك المنائر حولها معمولة بالذهب مزينة بالجواهر فعظمت المدينة فى عينه، فلما رآها ولم ير لها آخرًا ولا أولاً دهش وبهت، وكلما قرب منها زاد تعجبه وقال فى نفسه: هذه تشبه الجنة التى وعدها الله عباده المتقين فى الآخرة.

فقصد بابًا من أبوابها فلما وصل إليه أناخ ناقته ودخل الباب فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار ولم ير فى المدينة أحدًا تعجب فقال: أرجع إلى معاوية وأعلمه بهذه المدينة ليأتى إليها ويسكنها، وأخذ معه من حصباء المدينة جواهر ويواقيت وزبرجدًا وجعله فى وعاء كان معه على راحلته، وعلم على المدينة علامة وقال: قربها من جبل عدن كذا وكذا، ثم انصرف بعدما ظفر بإبله حتى دخل على معاوية بدمشق فسلم عليه فسأله معاوية: من أين قدم؟ قال: جئتك من مدينة من ذهب لا يدرى أولها ولا آخرها لعظمها فيها قصور من ذهب عليها غرف من ذهب على غرف أيضًا من ذهب مزينة بأنواع اللآلئ تشبه الجنة التى وعدها الله عباده فى القرآن، فقال معاوية: أرأيت هذه المدينة فى النوم؟ قال: رأيتها فى اليقظة وقد أخذت من حصبائها فأخرج إليه أنواعًا من الجواهر واليواقيت ما لم ير مثله فوجد بين تلك الجواهر واليواقيت مثل بعر الإبل من العنبر معجونًا بالمسك والكافور والزعفران، قد قلت رائحته من القدم، فجعل منها على النار فسطعت له رائحة العنبر والمسك والكافور والزعفران، فتعجب معاوية من ذلك وقال: لقد رأيت عجبًا.

ثم أرسل معاوية إلى كعب الأحبار رضي الله عنه فلما قدم عليه سلم وجلس فرد عليه السلام

وقال له معاوية: يا أبا إسحاق، هل بلغك أن فى الدنيا مدينة من ذهب؟ فقال كعب: نعم، يا أميـر المؤمنين، وقد ذكـرها الله عز وجل لموسى بـن عمران عليـه السلام، ومن بناها، وقص عليه خبرها وكـيف هلك بانيها وقومه، وقد ذكرها الله عز وجل لنبـيه محمد ﷺ مختصرة فـقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (سورة الفجر: ٦- ٨) وقـد أخـفـاها الله عـز وجل عن أعـين الناس وسيدخلها من هذه الأمة رجل يقال له عبـد الله بن قلابة الأنصارى، وجعل يصفه، ثم إنه نظر إلى عبد الله المذكور جالسًا عند معـاوية فقال: ها هو ذاك القاعد فسله عما قلت لك، فإن صفـته واسمه فى التوراة ولا يـدخلها أحد بعده إلى يوم القيـامة، فتعـجب معاوية من ذلك وأمر لهما بخلع ومال وصرفهما ﷺ والله أعلم.

[مدينة النحاس]

حديث مـدينة النحاس التى بنتـها الجن لسليمـان بن داوود عليهـما السلام فى فـيافى الأندلس بالمغرب الأقـصى قريبًا من بحر الظلمات، حدّث الهـقل بن زياد، أن عبد الملك ابن مروان[1] بلغه خبر مدينة النحاس أنهـا بالأندلس فكتب إلى عامله بالمغرب أنه قد بلغنى خبر مدينة النحاس التـى بنتها الجن لسليمان بن داوود عليهما السـلام، فاذهب إليها واكتب إلىّ بما تعاينه فيها من العجائب وعجّل إلىَّ بالجواب سريعًا إن شاء الله تعالى.

قال: فلما وصل كتاب عبد الملك بن مروان إلى عامله بالمغرب موسى بن نصير خرج فى عسكر كثيف وعدة كثيرة وزاد لمدة، وخرج معه الأدلاء يدلونه على تلك المدينة، فسار على غير طريق مسلوك مدة أربعين يومًا حتى أشرف على أرض واسـعة كثيرة المياه والعيون والأشجـار والوحوش والأطيار والـحشائش والأزهار، وبدا لهم سـور مدينة النحـاس كأن أيدى المخلوقين لم تصنعها فهالهم منظرها.

ثم إن الأمير موسى بن نصير قسم عسكره قـسمين، فنزل كل طائفة فى ناحية من سور المدينة، وأرسل قائدًا من قواده فى ألف فارس وأمره أن يدور حول المدينة وينظر هل يرى لها بابًا أو يشاهد حولها أحدًا من الناس فسار ذلك القائد وغاب عن الأمير ستة أيام.

---

(١) انظر فى هذا الخبر وما يليه: آثار البلاد ص ٥٥٩.

فلما كان فى اليوم السابع جاء ذلك القائد مع أصحابه وذكر أنه سار حول المدينة ستة أيام فلم يشاهد حولها من الآدميين أحدًا، ولم يجد للمدينة بابًا.

فقال موسى بن نصير: كيف السبيل إلى معرفة ما فى هذه المدينة؟

فقال المهندسون تأمر بحفر أساسها فمنه يمكن أن يدخل إلى داخل المدينة قال: فحفروا عند أساس سور المدينة حتى وصلوا إلى الماء وأساس النحاس راسخ تحت الأرض حتى غلبهم الماء، فعلموا أنه لا سبيل إلى دخولها من أساسها.

فقال المهندسون: تبنى إلى زاوية من زوايا أبراج المدينة بنيانا حتى نشرف على المدينة.

قال: فقطعوا الصخر وأحرقوا الجص والنورة، وبنوا إلى جانب المدينة فى زاوية برج من أبراجها بنيانًا مقدار ثلاثمائة ذراع حتى عجزوا عن رفع الحجارة والجص والنورة وقد بقى من السور مقدار مائتى ذراع.

فأمر موسى بن نصير أن يتخذوا من الأخشاب بنيانًا، فاتخذوا بنيانًا من الأخشاب على ذلك البنيان الذى من الحجارة حتى وصلوا مائة وسبعين ذراعًا.

ثم اتخذوا سلمًا عظيمًا ورفعوه بالحبال على ذلك البنيان حتى أسندوه إلى أعلى السور.

ثم ندب موسى بن نصير مناديًا ينادى فى الناس أن من صعد إلى أعلى سور المدينة نعطيه ديته، فجاء رجل من الشجعان والتمس ديته، فأمر موسى بن نصير بأن تسلم إليه فقبضها وأودعها، وقال: إن سلمت فهى أجرتى وأنا أقبضها، وإن هلكت فتسلم لورثتى.

ثم صعد حتى علا فوق السلم على سور المدينة، فلما علاه وأشرف على المدينة ضحك وصفق بيديه وألقى نفسه إلى داخل المدينة.

قال: فسمعوا ضجة عظيمة وأصواتًا هائلة ففزعوا واشتد خوفهم وتمادَّت تلك الأصوات ثلاثة أيام ولياليها، ثم سكنت تلك الأصوات، فصاحوا باسم ذلك الرجل من كل جانب من العسكر فلم يجبهم أحد.

فلما أيسوا منه ندب أيضًا الأمير موسى بن نصير مناديًا فنادى فى الناس وقال: أمر الأمير أن من ذهب وصعد إلى أعلى السور أعطيته ألف دينار فبرز رجل آخر من الشجعان وقال: أنا أصعد إلى أعلى السور.

فأمر الأمير أن يعطى ألف دينار فقبضها، وعمل فيها كما عمل الذى تقدمه ووصاه الأمير وقال له: لا تفعل كما فعل فلان، وأخبرنا بما تراه ولا تنزل إليهم وتترك أصحابك، فعاهدهم على ذلك.

فلما صعد وأشرف على المدينة ضحك وصفق بيديه وألقى نفسه وكل من فى العسكر يصيحون له ويقولون: لا تفعل، فلم يلتفت إليهم وذهب فسمعوا أيضًا أصواتًا عظيمة هائلة أشد من الأصوات الأولى حتى خافوا على أنفسهم الهلاك وتمادَّت تلك الأصوات ثلاثة أيام ولياليها ثم سكنت.

فقال موسى بن نصير: أنذهب من هاهنا ولم نعلم بشىء من علم هذه المدينة! وبماذا أكتب وأجاوب أمير المؤمنين؟ وقال: من صعد أعطيته ديتين، فانتدب رجل من الشجعان وقال: أنا أصعد، فشدوا فى وسطى حبلاً قويًا وأمسكوا طرفه معكم، حتى إذا أردت أن ألقى نفسى إلى المدينة فامنعونى.

قال: ففعلوا ذلك، وصعد الرجل، فلما أشرف على المدينة ضحك وألقى نفسه فجروه بذلك الحبل والرجل يجر من داخل المدينة حتى انقطع جسد الرجل نصفين ووقع نصفه من محزمه مع فخذيه وساقيه، وذهب نصفه الآخر إلى داخل المدينة، وكثر الصياح والضجيج فى المدينة.

فحينئذ أيس الأمير موسى من أن يعلم شيئًا من خبر المدينة، وقال: ربما يكون فى المدينة جن يأخذون كل من اطلع على المدينة، وأمر الأمير موسى عسكره بالرحيل وسار خلف المدينة فرسخًا أو نحوه، فرأى ألواحًا من الرخام الأبيض كل لوح مقدار عشرين ذراعًا فيها نقش كتاب باللسان المسند فيها أسماء الملوك والأنبياء والتبابعة والفراعنة والأكاسرة والجبابرة ووصايا ومواعظ، وذكر النبى ﷺ وذكر أمته وشرفه وشرف أمته وما لهم عند الله عز وجل من الكرامة.

وكان معه من العلماء من يقرأ كل لغة فنسخوا ما على تلك الألواح، ثم رأوا على بعد صورة من نحاس فذهبوا إليها فوجدوا الصورة على صورة رجل فى يده لوح من نحاس وفى اللوح مكتوب ليس ورائى مذهب، فارجعوا ولا تدخلوا هذه الأرض فتهلكوا.

فقال الأمير موسى بن نصير: هذه أرض بيضاء كثيرة الأشجار والنبات، والماء فيها، فكيف يهلك الناس فيها؟.

وأمر جماعة من عبيده فدخلوا تلك الأرض، فوثب عليهم من تلك الأرض من بين الأشجار نمل عظام كالسباع الضارية فقطعوا أولئك الرجال وخيولهم، وأقبلوا نحو العسكر مثل السحاب كثرة حتى وصلوا إلى تلك الصورة، فوقفوا عندها ولم يتعدوها، فعجبوا من ذلك وانصرفوا، حتى إذا بعدوا من المدينة إلى ناحية المشرق رأوا شجراً كثيراً.

حديث البحيرة والجن المسجونين فيها:

قال فلما وصلوا إلى تلك الشجر رأوا عنده بحيرة والأمواج فيها تلتطم والطير كثير حواليها الشجر مثمر عليها لم ير الراءون أحسن منها لكثرة الأشجار، ومناغاة الأطيار وألوان الأزهار، وطيب تلك الثمار، فأعجب بها الأمير موسى وأمر أجناده وأصحابه أن ينزلوا حولها فنزلوا، وأمر الغواصين فغاصوا فى البحيرة فأخرجوا جبابا من النحاس عليها أغطية من النحاس مختومة، قال: ففتح منها جبًا فخرج منه فارس من نار على فرس من نار فى يده رمح من نار فطار فى الهواء، وهو ينادى: يا نبى الله لا أعود.

وفتح جبًا آخر فخرج منه فارس كالدخان على فرس كالدخان فى يده رمح كالدخان وهو يقول: يا نبى الله لا أعود.

وفتح جبًا آخر فخرج منه فارس كالصقر على فرس كالصقر فى يده رمح كالصقر فطار فى الهواء وهو ينادى: يا نبى الله لا أعود.

فقال الأمير موسى ومن كان معه من العلماء: ليس الصواب أن نفتح هذه الجباب لأن فيها جنًا قد سجنهم سليمان بن داوود عليهما السلام لتمردهم، فأعاد بقية الجباب إلى البحيرة.

ثم أذن المؤذن لصلاة الظهر، فلما ارتفعت الأصوات بالأذان خرج من وسط البحيرة شخص كالآدمى هائل المنظر، وجعل ينظر إلى الناس يمينًا وشمالاً فصاح به الناس من كل جانب، من أنت يا هذا القائم على الماء؟.

فقال: أنا من الجن الذين سجنهم سليمان بن داود فى هذه البحيرة، وإنما خرجت لما سمعت أصواتكم لأننى ظننت أنه صاحب الكلام.

قالوا له: ومن صاحب الكلام؟.

قال: رجل يمر بهذه البحيرة فى كل سنة يوما، فيقف يذكر الله عز وجل ويسبح ويقدس ويكبر ويستغفر ويدعو لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ثم ينصرف، وأسأله عن اسمه ومن هو فلا يكلمنى، قيل له أتظنه الخضر؟ قال: لا أدرى، قيل: كم سجن سليمان فى هذه البحيرة من الجن؟ قال: ومن يقدر يحصى عددهم، ثم غاب عنا.

قال: فعزمنا على الانصراف فقالت الأدلاء: أيها الأمير، إن الطريق الذى جئنا منه لا يمكن الرجوع فيه لأن الأمم التى حول ذلك الطريق قد علمت بمجيئنا وقد حالوا بيننا وبين الرجوع عليهم ولا قدرة لنا على قتالهم، ولكنا نعدل إلى جهة أخرى على أمة يقال لها منسك.

حديث منسك بن النفرة:

من ولد يافث بن نوح النبى عليه السلام، قال: فخرجوا من أرض كثيرة الأشجار والمياه والوحوش على غير الطريق حتى وصلوا بعد أيام إلى مدينة عظيمة، وإذا بقوم كأن كلامهم كلام الطيور لا يفهم، فلما رأونا أحاطوا بنا وعليهم أنواع السلاح وهم كالتراب كثرة، فأيقنّا بالهلاك حتى خرج ملكهم عليه لباس الملوك وحوله الحشم، فلما رآنا أقبل إلينا وحده وسلم علينا بلسان عربى قال: ففرحنا لما فهمنا كلامه واستبشرنا، وقال: أيها الناس، من أنتم ومن أميركم وفيم دخلتم هذه الأرض؟ فإنا ما رأينا أحداً مثلكم.

قال: فخرج إليه الأمير موسى بن نصير وسلم عليه، وقال: أيها الملك، أنا أمير قومى وأنت أمير علينا ونحن قوم من العرب من جند أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، ولنا خبر وحديث، إذا نزلنا واسترحنا من تعب السفر أعلمناك أمرنا.

فقال الملك: إن أرضنا كثيرة الحر فى وسط النهار وتميل الشمس على أرضنا، وسآمر لكم بإنزالكم فى بعض الأودية لتستكنّوا فيه من الحر، كثير الشجر والمياه شاهق الجبال.

فأمر بعض أمرائه أن ينزلنا ويقوم بجميع ما نحتاج إليه من الطعام والعلف وغيره،

فأنزلنا فى واد كثير العيون والشجر والأراضى النضرة النظرة التى تخللها الأنهار قد أينعت بالأزهار وقد حلت من اختلاف الثمار عليها من سائر الأطيار، تتناغى بسائر اللغات، من بين قُمْرِىٍّ، ونوبى وشحرور، وبلبل، يتجاوبن كنغمات العيدان، والناى، والرباب، والطربرب، والطنبور إذا جسهن كل مجيد بالموسيقى جس خبير.

وأمر لنا بجميع ما نحتاج إليه من أطعمة وحلواء وعلوفات الدواب والإقامة الحسنة، فأقمنا فى أحسن موضع.

ثم إن الملك أقبل إلينا فى جماعة أمرائه وحشمه، فتلقيناه بالترحيب وشكرناه على ما أولانا من الإحسان، فاعتذر إلينا ثم جلس وأمراؤه قيام على رأسه للخدمة فى أحسن هيئة.

فقال له الأمير موسى بن نصير: أيها الملك من أنت ومن قومك ومن أى الأمم أنتم؟ فقال الملك: أما نحن فأمة من ولد منسك بن النفرة من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وأنا ملكهم أرث المُلك من آبائى فيهم، وقومى أمم لا عدد لهم، ولى بلاد كثيرة ورساتيق وقلاع وحصون لا عدد لها، فأخبرنى من أنت ومن أين أنت وما أدخلك هذه الأرض؟.

فقال: أيها الملك نحن قوم من العَرَب من جند خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان، كتب إلى يأمرنى أن أذهب إلى مدينة النحاس وأكتب إليه بما أرى فيها فخرجت لأمره ووصلت إلى المدينة ولم أجد لها بابًا واحتلت كل حيلة فلم أقدر على دخولها، ورأيت ألواح الرخام وكتبت ما عليها ورأيت البحيرة.

فقال الملك: أما المدينة فقد رأيتها وما على الألواح فكل عاقل فى بلادى يحفظ تلك الوصايا والمواعظ التى عليها، فقال موسى بن نصير: أيها الملك كيف تعلم لسان العرب ولا أرى فى قومك من يكلمنا به غيرك فقال الملك: ما من لسان أمكننى تعلمه إلا وقد أنفقت على تعليمه أموالاً وتعبت فى معرفته دهرًا، والملك إذا لم يصلح لنفسه بأن يصلح ما يزيد فى فضائلها كيف يصلح لرعيته! ومعرفة اللسان زيادة إنسان فكل لسان إنسان فاستأذناه فى الرحيل فأذن لنا وزودنا وأخرج معنا الأدلاء يخرجونا من بلاده على أسهل الطرق، فودعناه وانصرفنا حتى وصلنا إلى بلاد الأندلس بعد ثمانية شهور.

ثم كتب موسى بن نصير إلى عبد الملك بن مروان، فعجب من أمر المدينة ومن تلك المواعظ والوصايا التى على تلك الألواح وأسماء الملوك وذكر محمد النبى ﷺ وعلى

آله وشرف أمته وقال: الحمد لله الذى جعلنا من أمة محمد ﷺ، وأجار الرسول وأحسن إليه فيما يقال والله أعلم.

رومية العظمى:

وهى مدينة عجيبة عظيمة، دورها عشرون فرسخًا، وعليها ثمانية أسوار من الصخر عالية فى الهواء ولها باب واحد، لأن جوانبها الثلاثة يحيط بها البحر الأسود، والجانب الواحد إلى البر، وهى فى جبل داخل البحر، وقد بنتها الجن لسليمان، حفروا ذلك الجبل حتى بنوا المدينة فى الجبل والبحر يعلو المدينة.

وحول المدينة نهر من النحاس عمقه أربعون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا، وعليه ألواح من النحاس طول كل لوح خمسون ذراعًا فى عرض عشرين ذراعًا فى غلظ ذراعين، فيما يقال والله أعلم.

وجعلوا من أول المدينة إلى آخرها أعمدة من النحاس صفين، وعلى الأعمدة نهر من النحاس يدخل ماء البحر، وتدخل السفن فيه بأثقالها، وهذا من عجائب الدنيا.

وفيها فيما يقال كنيسة من ذهب عظيمة طولها ألف ذراع فى عرض خمسمائة، ويقال: إن فى الكنيسة من الصفر الأصفر الذى يشبه الذهب.

وفيها من الكنائس العظام والبناء العجيب الذى لم يشاهد الناس مثله قط.

وفيها من الصوامع المعمولة من النحاس وأنواع الحجارة آلاف يسكنها الرهبان.

وفيها من الأسواق أمر عظيم، كل سوق بطول المدينة، وبعضها بعرض المدينة، كل سوق عشرة فراسخ، يباع فى كل سوق أنواع الأمتعة والمأكولات من الفواكه، والأخبار والطبايخ وأنواع الحلاوات والأنقال.

ومن آخر يوم السبت إلى صبيحة يوم الاثنين، يدخلون الكنائس ويشتغلون بالصلاة والقربان.

وجميع سقوفها بالرصاص الأسود، وإذا أراد الملك أن يخرج إلى خارج المدينة، يخرج الخدم بين يديه على أيديهم أطباق الذهب، فيها الدنانير ينثرونها عن يمين طريق

الملك ويساره، فيميل الناس إلى أخذ الذهب ويتركون للملك الطريق حتى يذهب فيه، يفعل ذلك من كثرة الناس، ويسمى ذلك عندهم الملك الرحيم، [وهو] بمنزلة الخليفة فى المسلمين، وجميع النصارى يرجعون إلى حكمه ويطيعون قوله.

ولما كنت فى باشغرد سنة خمس وأربعين وخمسمائة، كان بينى وبين رومية أيام يسيرة، وسألت بعض المسلمين الذين يسافرون إليها من باشغرد عن صفتها، فوصف لى كما كتبته هنا، وذكر أن أكثر المدينة قد خرب الآن، لأن الأمراء تنافسوا فى البلدة وتقاتلوا، والملك الكبير لا يقدر على قهرهم، قال فترى على قصور الملوك قد نصبوا المجانيق[1] والعرّادات[2] يرمى بعضهم بعضًا، وجيش كل محلة يغزو إلى الأخرى ،ويقتل بعضهم بعضًا، ويسبى بعضهم بعضًا، ويفتح أهل كل محلة فى الأسوار أبوابًا يخرجون منها إلى خارج البلدة.

وكنت قد أردت الذهاب إليها لنشاهدها فمنعنى المسلمون، وقالوا: إن بعض إخوة ملكنا قد ذهب إلى رومية، وقد تزوج بنت ملكها، فلو تركناك تذهب إليها لخشينا أن يقال للملك: إنك ذهبت بأموال عظيمة إلى أخيه لتعينه على حرب الملك، فيكون سبب هلاكنا فامتنعت.

وباشغرد هذه أمم عظيمة، وهى ثمان وسبعون مدينة، كل مدينة كأصفهان وبغداد، وفيها من النعيم والرخاء ما لا يعد ولا يحصى، وابنى الأكبر حامد، فيها تزوج بامرأتين من كبار المسلمين ورزق أولادًا.

وسكان رومية أمة من النصارى يقال لهم: نامش[3]، وهم أشجع من الإفرنج وأحسن وجوهًا من جميع الروم، وعندهم صناع كثيرون فى جميع الصناعات، ويتخذ عندهم ثياب الكتان الذى لا يوجد مثله، الثوب الواحد مائة ذراع وأكثر، أوله وآخره ووسطه شىء واحد، لا يختلف فيه خيط واحد يحمل إلى بلاد الصقالبة، ويعرف بالكتان الروسى.

والروس هم من الصقالبة ويتخذون فى رومية أنواعًا من ثياب الصوف الملونة أحسن

(١) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.
(٢) العرّادة: آلة من آلات الحرب القديمة، وهى مَنْجَنِيق صغير.
(٣) المقصود هنا الألمان.

من الديباج الرومى، يكون الذراع بدينار عندهم، لا ينفذ المطر مع لينه ونعومته وحسن لونه، من أحمر كالدم مصبوغ بالقِرْمِز[١]، وهو حيوان ينزل من السماء فى زمن الخريف على شجر البلوط يشبه الأنجل الأحمر المنتن الذى يكون فى البيوت أحمر صغيراً مثل نوى الخرنوب الشامى منتن الرائحة، فالقرمز يشبهه، وهو أحمر مثله، به يصبغ الصوف والإبريسم، ولا يصبغ القطن ولا الكتان، ولا كل شىء ينبت، إنما يصبغ به ما كان متصلاً بالحيوان، وهذا أيضًا من عجائب الدنيا، وصبغه لا يغير أبداً، فاعلم ذلك.

حديث صنم قادس[٢]:

الذى بناه ذو القرنين والله أعلم بالصواب، وذلك أن فى أندلس مجمع البحرين: البحر الأسود، وبحر الروم، وفى مجمع البحرين جزيرة قد بنى فيها منارة من الصخر الأسود الذى لا يعمل فيه الحديد شيئًا البتة، طولها مقدار مائة ذراع أو أكثر، مربعة الأسفل مدورة الأعلى، مصمتة ليس لها باب، وعلى رأسها صورة آدمى أسود كأنه زنجى، قد التحف بثوب من ذهب بالتحاف عجيب لا يقدر أحد أن يلتحف بمثله وقد اضطبع بالثوب وأخرج منكبه الأيمن، وذراعه ويده ممدودة، يشير بإصبعه المسبحة إلى ناحية المغرب واليسرى فى البحر الأسود كأنه قابض على مفتاح، وذلك البحر أبداً، فيه أمواج كالجبال، لا تقدر سفينة تدخل فيه لكثرة أهواله، والله أعلم.

ومما فى جزيرة الأندلس أن ابن حزم ذكر فى «رسالته» التى وضعها فى وصفها، وذكر خصائصها وطبائع أهلها أن أرضها شامية فى طيبها، تهامية فى اعتدالها واستوائها، أهوازية فى عظم خراجها وجبايتها، عدنية فى منابع سواحلها، صينية فى معادنها، هندية فى عطرها وذكائها، وأهلها عرب فى الأنساب والعِزة[٣] والأنفة وفصاحة اللسان، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والنزاهة عن الخضوع، هنديون فى فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها، بغداديون فى ظَرْفهم[٤] ونظافتهم، ورقة أخلاقهم، ونباهتهم ولطافة أذهانهم، ودرة أفكارهم، نبطيون فى استنباطهم المياه، ومعاناتهم للغراسة وتركيب الشجر والفلاحة،

(١) القرمز: صبغ أرمينى أحمر تصبغ منه الثياب فلا يكاد يزول.
(٢) انظر شكل رقم (١).
(٣) فى الأصل: «والمعزة» والمثبت رواية النويرى والمقّرى.
(٤) فى الأصل: «طرافتهم» والمثبت رواية النويرى والمقرى.

صينيـون فى إتقان الصنائع العمليـة وإحكام المهن الصورية، تُرْكـيّون فى معـاناة الحروب ومعالجة آلامها والنظر فى مهمّاتها[١].

نوع من الخصـائص فى مدينة حـمص من بلاد كرمـان: لا يمطر المطر فيـها أبدًا إلا خـارج البلدة، حتى أن الرجل يـخرج يده من سـورها إلى خارجـهـا فتـبتل يداه ولا يـبتل ساعده، وبقـرية من قرى كرمان حصن عـادى ليس فيه فأر، فإذا دخل إليـه فأر مات، ولا يوجد بمدينة حمص أيضًا عقرب، ويقال إن الطلسم فى قلعتها، ويقال إن حمص لا يدخل مدينتها حية، وأنه متى ذر عليها من ترابـها شىء ماتت لوقتها، وكذلك ليس بها بعوض ولا بق، وأن الرجل متى أخرج يده من السور، وقع عليهـا البعوض، فإذا أدخل يده طار عنها، ولا يوجد بسجلماسة ذباب.

فصل: ويقال: إن مـن أقام ببلاد التـبت اعتـراه سرور لا يدرى مـا سببه، ولا يزال مبتـسمًا ضاحكًـا حتى يخرج منها، وأن المـيت إذا مات فيهـا لا يدخل على أهله كرب ولا حزن، كما يلحق غيرهم عند موت محبوب أو فوت مطلوب[٢].

وفى الصين مناديل الغمر التى إذا اتسخت ألقيت فى النار، فتنقى ولا تحترق.

والعرب تقول لكل طرفة من الأوانى وما أشبههـا، كائنًا ما كانت، صينية، لاختصاص الصين بالطرف.

وفى سَمَرْقَنْـد القراطيس التى عطلت قراطيس مصـر لأهل المشرق، كقـراطيس مصر لأهل المغرب.

وفى بَلْخ: أنها شبيهة بالعراق وخراسان والهند[٣].

وفى غزنة أن الأعمار بها طويلة، والأمراض بها قليلة.

وفى بست يقال: إن من مات فيها مغفورًا له، فقد انتقل من جنة إلى جنة.

وفى طوس أن الله تعالى ألان الحجارة، كما ألان لداود عليه السلام الحديد حتى أنهم يتخذون منها ما يتخذ الناس من الزجاج، كالأقداح والكيزان وغيرها من الأوانى.

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٥٨، نفح الطيب ج ٣ ص ١٥٠.

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٧.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٤.

وفى نيسابور أن أهلها لا يكرمون الغريب ولا يؤنسون القريب[١] وفى جرجان، وتسمى بغداد الصغرى، أنها قاتلة للغريب لاختلاف هوائها، وكان أبو تراب النيسابورى يقول: لما قُسمت الدنيا بين الملائكة، وقعت جرجان فى قسمة أبى يحيى ـ يعنى ملك الموت[٢].

وفى الرى أنها تزم بأهلها.

وفى أصبهان حجر الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران.

وفى فارس أن لشيراز فَغْمة[٣] طيبة ليس فيما عداها من كور الفرس.

وفى الأهواز قصبتها مخصوصة بالحمى الدائمة حتى أنها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب، ولا يكاد يوجد بها وجنة حمراء لصبى أو لصبية، ولربما لمست القابلة المولود فتجده محمومًا، ومن عجائب خصائصها، أن جميع أصناف الطيب تستحيل رائحتها فيها الاستحالة الشديدة، حتى لا يوجد لها رائحة، وهذا من كثرة الرطوبة وغلظ الهواء والبخارات الفاسدة وهذا موجود بالقسطنطينية وأنطاكية أيضًا.

وفى الكوفة أن أصدق ما يقال فى أهل بلدها: الكوفى لا يوفى.

وفى البصرة أن للغربان بها مسودًا ويقع على كل نخلة قد صرم نخلها، ولا يقع على ما لم يصرم، ولو بقى عليها عذق واحد. ومن عجائبها أيضًا أن الثمر يكون مصبوبًا فى بيادره، فلا يقع على شىء منه ذبابة لا فى ليل ولا فى نهار. وأهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والعجوة، خوفًا عليها من الجفاف، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل، فلا يوجد فى تلك الظلال شىء منه البتة، فيتوهم المتوهم أن هاتين الحالتين من طِلَّسْم له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب، وليس الأمر كذلك، وإنما هو من حماية الله ووقايته[٤].

وفى جزيرة العرب أن مكة يربع الذئب فيها الظبى ويعارضه ويصيده، فإذا دخل الحَرَم كَفّ عنه، ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمام إلا إذا كان عليلاً، وأن من عادة الطير إذا

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٣.

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٢.

(٣) هذه رواية النويرى ج ١ ص ٣٦١ وفى الأصل: «نعمة» والفغمة من الطيب: رائحته.

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٥٩

حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين لا تعلوها.

وفى المدينة على ساكنها الصلاة والسلام أن العِطْر والبُخُور يوجد لهما من الضَّوْع والرائحة الطيبة أضعاف ما يوجد فى سائر البلاد، ولها فى نفسها فَغْمة[1] طيبة ورائحة عطرية، وإن لم يكن فيها شىء من الطيب البتة، ولهذا سميت طَيْبة، وطابَة.

قال الشاعر فى ذلك:

[كامل]:

ماذا على من شَمَّ تُربَةَ أَحْمَدٍ
أن لا يَشُمَّ مَدَى الزمان غوالِيا[2]

وفى اليمن أن السيف متى قُلِع بالهند وطبع باليمن، فناهِيكَ به جودة[3]!

وفى الموصل قال الجاحظ: من أقام بالموصل حولا ثم تفقد قوته وجد فيها فضلاً.

وفى المصيصة أن من أطال الصوم بها هاجت به المرة السوداء وربما جن.

وفى مصر أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين [بلاد] الدنيا بسور استغنى، أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا، وفيها ما ليس فى غيرها، وهو [حيوان] السقنقور والنِّمس، ولولاه لأكلت الثعابين أهلها، وهو لها كقنافذ سجستان لأفاعيها. والسمك الزَّرعَاد والحطب السَّنْط الذى لا رماد له، ويقال: إنه الآبنوس، ولكن البقعة قصرت فيه عن الكيان، ودُهْنُ البَلَسان والأفيون، وهو عصارة الخشخاش واللبخ، وهو ثمر فى خلقة اللوز إلا أن المأكول منه الظاهر. والأترج الأبلق. والزُّمُرُّد. وأهلها يأكلون صيد البحر الرومى وبحر فارس طريا. وأن صيفها خريف، وشتاءها ربيع، وما ينقطع فى سائر البلاد يوجد فيها فى الحر، وكذلك فى البرد لاعتدال حرها وبردها، إذ هى فى الإقليم الثالث والإقليم الرابع، فسلمت من حر الأول والثانى، وبرد السادس والسابع[4].

(١) فى الأصل: «فى نفسها نعمة» والمثبت رواية النويرى.

(٢) رواية أحد الأصلين: «ما على من مس تربة أحمد أن لا يمس مدى الزمان غواليا».
ورواية ثانيهما: «ما على من مس تربة أحمدا أن لا يمس طول الزمان غواليا» والمثبت رواية النويرى ج ١ ص٣٢٣ جـ ٣٢٤.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤٠.

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٥٥، ٣٥٦.

ومما وصفت به أن صعيدها حجازى، ينبت النخل والمُقْل والموز والعُشَر والقَرَظ. وأسفل أرضها شامى يمطر بمطر الشام، ويقع فيه الثلوج، وينبت التين والزيتون والعنب والجوز واللوز والفستق وسائر الفواكه[١].

فصل: ومن خصائص البلاد أن أصحاب التواريخ حكوا فى كتبهم أن عمرو بن أبى عامر [مُزَ يقيا] قال لقومه لما تحققوا كونَ سيلِ العَرِم: من كان ذا شاءٍ وبَعيرٍ وجملٍ غير شَرُود،[٢] فيلحق بالشِّعب من كُوفان فلحقت به هَمْدان، ومن كان ذا سياسة وصَبْر على أزمات الدهر فيلحق ببطن مَرٍّ، فلحقت به خُزاعة ومن كان يريد الراسخات فى الوَحْل المطعمات فى المَحْل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فلحقت به الأوس والخزرج. ومن كان يريد الخمر والخَمير والأمر والتأمير، فليلحق بالشام، فلحقت به غَسّان. ومن كان يريد الثياب الرُّقاق، والخيول العِتَاق، والذهب والأوراق فليلحق بالعراق فلحقت به لَخْم[٣].

فصل: الهند: بحرها دُرّ، وجبلها ياقوت، وشجرها عُود، وورقها عطر[٤] وكرمان ماؤها وَشَل، وثمرها دَقَل، وعودها بهل.

وخراسان: ماؤها جامد، وعودها جاهد. وعمان حرها شديد وصيدها عتيد، والبحرين كناسة بين المصرين. والبصرة ماؤها ملح، وحربها صلح، مأوى كل تاجر، وطريق كل عابر، والكوفة ارتفعت عن حر البحرين وسلمت عن برد الشام وواسط: جنة بين حماة، والشام عروس بين نساء جلوس، ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد، تطول الأعمار فيها وتسود الأبشار.

فصل: ونذكر خصائص البلاد العَمَلية والعِلْمِيّة، فيقال: حكماء يونان وأطباء جُنْدَيْسابور وصاغة حرّان، وحاكة اليمن، وكتاب السواد.

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الأحجار، فيقال فَيْرُوزَج نيسابور، وياقوت سرنديب، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجَزْع ظَفَار، وبجادى بلخ، ومَرْجان إفريقية.

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٥٦.

(٢) فى الأصل: «وجمل شديد» والمثبت رواية النويرى.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٦.

فصل: نذكر خصائص البلاد فى الحيوانات ذوات السموم، فيقال: أفاعى سجستان، وثعابين مصر، وعقارب شَهْرَ زُور، وجَرّارات الأهواز، وبراغيث إرمينية، وفأر أرْزَن، ونمل ميافارقين وذباب تل فافان وأقداح بلد[١].

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الملابس، فيقال برود اليمن، وقصب مصر، وديباج الروم، وخز السوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلل أصبهان، وسقلاطون بغداد، وعمائم الأُبُلَّة ومُنَيَّر الرى، ومُلْحَم مَرْو[٢].

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الأوبار، فيقال سنجاب خِرْخِيز، وسَمُّور بُلْغار، وثعالب الخَزَر، وحَوَاصل هراة، وقاقُم التغزغز[٣].

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى المركوب، فيقال: عِتَاق البادية، ونَجَائب الحجاز، وبراذين طَخَارستان، وحَمِير مصر، وبِغَال بَرْذَعة[٤].

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الحَلْوَاء، فيقال سكر الأهواز، وعسل أصبهان، وفانيذ ماسكان[٥].

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الثمار فيقال رطب العراق، وتَمْر كَرْمان، وعُنَّاب جُرْجان، وإجّاص بُسْت، وسَفَرْجل نيسابور، وتفاح الشام، ومِشْمِش طوس، وكمثرى نَهَاوَنْد، وأُتْرجّ طبرستان، ونارَنْج البصرة، وتين حلوان، وعنب بغداد، وقِشمش[٦] هراة، وموز اليمن، وجوز الهند وبطيخ خوارزم، وباقلاّ الكوفة[٧].

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الرياحين فيقال نَرْجس جُرْجان، ووَرْد جُور، ونَيْلُوفر السِّيروان ومنثور بغداد، وزعفران قُمّ وشاهسْفَرم سمرقند[٨].

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٠.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٩.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٩.
(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٠.
(٥) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٠.
(٦) تحرف فى الأصل إلى: «مشمش».
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.
(٨) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١ والشاهسفرم لدى ابن البيطار ج ٢ ص ٥٠: «نوع من الحبق دقيق الورق جدًا، عطر الرائحة».

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الأمراضّ فيقال: طواعين الشام وطِحَال البحرين، وحُمّى خيبر، ودَمَامِيل الجزيرة، وجُنُون حمص، وعَرَق اليمن، وَوَبَاء مصر، وبِرْسام العراق، والنار الفارسية، وقُرُوح بَلْخ[١].

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الآثار العلوية فيقال شتاء إرمينية، ومصيف عمان، وصواعق تهَامَة، وزلازل دَبيل[٢].

فصل: ونذكر خصائص البلاد فى الخَلْق والأخلاق، فيقال: شُقْرة الروم، وسَوَاد الزِّنج، وغلَظ الترك، ودَمَامة الصين، وقصرِ يأجوج ومأجوج، وخبل الزنوج[٣].

وقال الجاحظ فى «كتاب الأمصار»: السياسة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والتَّخْنِيثُ ببغداد، والغَىّ بالرى، والجفاء بنيسابور، والحسن بهراة والطَّرمذة بسمرقند، والمروءة ببلخ، والبخل بمرو، والعجائب بمصر.

وحكى عن الحجاج أنه سأل ابن القِرِّيَّة[٤] عن طبائع أهل البلاد وأخلاقهم، فقال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة وأعجزهم عنها، رجالها حفاة، ونساؤها كساة عراة، وأهل اليمن أهل سَمْع وطاعة، ولزوم الجماعة، وأهل عُمَان عرب اسْتَنْبَطُوا، وأهل البحرين نَبَطٌ استَعربَوا. وأهل اليمامة أهل جَفَاء واختلاف فى الرأى، وأهل فارس أهل بأس شديد، وعزّ عتيد، وأهل العراق أبحث الناس عن صغيره وأضيعهم لكبيره[٥]، وأهل الجزيرة أشجع الفرسان، وأقتل للأقران. وأهل الشام أطوعهم للمخلوق، وأعصاهم للخالق. وأهل مصر عبيد لمن غلب، أكيس الناس صغاراً، وأجلهم كباراً[٦].

وقال الجاحظ: كنا نُعَلَّم فى المكتب كما نُعَلَّم القرآن: احذروا حماقةَ أهل بخارى، وغلَّ أهل مَرْو، وشَغَب أهل نيسابور، وحسد أهل هراة، وحِقْد أهل سِجِسْتان[٧].

ويقال: إن القدماء اعتبروا أخلاق أهل البلاد، وما امتاز به بعضها عن بعض من

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.
(٤) تحرف فى الأصل إلى: «العربة» وصوابه لدى النويرى.
(٥) فى الأصل: «صغيرة... لكبيرة» والمثبت رواية النويرى.
(٦) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٤.
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٤.

الطبائع، فوجدوا أخصب بقاع الأرض ثمانية مواضع: أرمينية، وأذربيجان، وماه دِينَور، وماه نَهَاوند، وكرمان، وأصبهان، وقُومَس، وطبرستان[١].

ووجدوا أخف بقاع الأرض ماء ثمانية مواضع: دجلة، والفرات، وزَنْدرود أصبهان، وماء سوران، وماء هَفيجَان، وماء جنديسابور، وماء بلخ، وماء سمرقند[٢].

ووجدوا أوبأ بقاع الأرض ستة مواضع: النُّوبَنْدَجان، وسابور خُوَاسْت، وجرجان، وحلوان، وبرذعة، وزَنجان[٣].

ووجدوا أعقل أهل البلاد [تسعة] أهل أصبهان، والحيرة، والمدائن، وماه دينور، ونيسابور، وإصطخر، والرى، وطبرستان، ونشوى، وهى التى تسمى نقجوان[٤].

ووجدوا أسرى أهل بقاع الأرض سبعة مواضع: أهل طوسفون ـ وهى المدائن وبلاشون، وما سبذان، ونهاوند، وأصبهان، والرى، ونيسابور[٥].

ووجدوا امكر أهل بقاع الدنيا: أهل ماسَبَذَان، ومِهْرِجانْقَذَق وسورستان، والرى. والرُّويان، وأذربيجان، والمَوْصل، وإرمينية، وشهرزور، والصامَغَان[٦].

ووجدوا أبخل أهل بقاع الأرض: أهل مرو، وإصطخر، ودارا بجرد، وخوزستان، وماسَبَذَان، ودَيْبُل، وماه دينور، وحلوان[٧].

ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض [أربعة] أهل البندجان، وبادَرَايا وباكُسايا، وخوزستان[٨].

ووجدوا أقل أهل بقاع الأرض نظرا فى العواقب أهل [سبعة مواضع]: طبرستان، وأرمينية، وقومس، وكرمان، وهراة، ومكران، وشهرزور[٩].

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥.
(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥ وما بين حاصرتين منه.
(٥) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥.
(٦) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٦.
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٦.
(٨) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٦ وما بين حاصرتين منه.
(٩) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٦ وما بين حاصرتين منه.

فصل فى المبانى:

ومن المبانى العظيمة سد ذى القرنين الذى بناه على يأجوج ومأجوج: وصفته على ما حكاه ابن خُرْدَاذْبُه[١] أن مكانه جبل أملس مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا، وفى جانب الوادى عضادتان مبنيتان عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعًا، وكل ذلك مبنى بلبن من حديد مغيب فى نحاس فى سمك خمسين ذراعًا، وعلى العضادتين دَرْوَنْد حديد طرفاه فى العضادتين، طوله مائة وعشرون ذراعا، وفوق الدَّرونْد بناء بتلك اللبن من الحديد المغيبة فى النحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مد البصر، وفوق ذلك شُرَّافات من حديد، فى طرف كل شُرَّافة قرنان يثنى كل واحد منهما إلى صاحبه، وبين العضادتين باب من حديد بمصراعين كل مصراع خمسون ذراعًا فى خمسة أذرع، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غلظ باع فى الاستدارة، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعًا، وعتبة الباب عشرة أذرع بسط مائة ذراع، سوى ما تحت العضادتين، يقال إن آلات البناء التى بنى بها هذا السد، وهى مغاريف، وبقية لبن كل ذلك من حديد، وإن كل لبنة ذراع ونصف فى مثل ذلك، فى سمك شبر قد ألصق الصدأ بعضها ببعض.

وبنى قناطر سَدّ اللَّبِن[٢] من أرض شَرْوَان إلى بلاد اللاَّن، وبينهما مائة فرسخ وصل فيه بين شعاب جبل القَبْق وهو جبل عظيم، قد اشتمل على اثنتين وسبعين أمة، لكل أمة لسان وملك، لا يعرف بعضهم بعضًا لكثرة غياضه وأشجاره، وعظم صخره وأحجاره، وتسلسل مياهه وأنهاره، يكون مسافته طولاً وعرضًا نحو الشهرين. ومبدأ السور من جوف بحر الخزر على مسافة ميل مارا إلى البر، ثم يمر كما قلنا إلى أن يتصل بقلعة طبرشروان[٣]، بناه بالصخر والحديد والرصاص على أرقاق البقر المنفوخة، فلما ارتفع البناء نزلت تلك الأرقاق إلى أن استقرت فى قعر البحر، فغاصت الرجال إليها فشقتها وتمكن البناء على الأرض، وجعل بين كل ثلاثة أميال أو أقل أو أكثر، بابا من حديد على

(١) المسالك والممالك ص ١٦٢ - ١٦٩ وانظر فى ذلك أيضا ياقوت ج ٣ ص ١٩٩.

(٢) هذه رواية المخطوط ومثلها لدى النويرى، وفى المطبوع: «البر».

(٣) هذه رواية المخطوط ومثلها لدى النويرى، وفى المطبوع: «طبرستان».

حساب الطريق الذى جعل من أجله الباب، وبنى عليه حصنًا وأسكن فيه من يحفظ ذلك الباب ويحرسه[١].

ويقال فى سبب بنائه لهذا السور: إنّ الخَزَر كانت تعبر فى سلطان فارس إلى أن تبلغ همذان والموصل وتعم البلاد بالعيث والفساد[٢].

ومن مشهور مبانى العرب غُمْدان وكان بصنعاء: قال الجاحظ: أحبت العرب أن تشارك الفرس فى البناء وتنفرد بالشعر، فبنوا غمدان، وكعبة نَجْران وحصن ماردِ والحصن الأبلق. ويزعم بعض الأخباريّين أن بانيه هو حام بن نوح عليه السلام. ويزعم آخرون أن بيوراسب بناه على اسم الزهرة[٣].

وذكر ابن هشام أن الذى أسسه يعرب بن قحطان وأكمله بعده وأجمله وائل بن حمير ابن سبإ بن يعرب. وكانت صفته على ما نقل من الكتب المدونة فى عجائب الدنيا: مُرَبَّعًا، أحد أركانه مبنى بالرخام الأبيض، والثانى بالرخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرخام الأحمر. فيه سبعة سُقُوفٍ طِباقًا، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعًا، وجعل على كل ركن تمثالُ أسدٍ من نحاس، إذا هبت الريح دخلت من دُبُره وخرجت مِنْ فيه، فيسمع لها صوت كزئير الأسد[٤].

وقال ابن الكلبى: كان على كل ركن من أركان غُمْدان مكتوب بالحميرية: اسلَمْ غُمْدان مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدْوان[٥].

ويقال: إن سليمان عليه السلام، أمر الشياطين أن يبنوا لِبِلْقِيسَ أربعة[٦] قصور: غُمْدان، وصِرْواح، وبينين [وسَلْحين. وكلها باليمن[٧]].

وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا يستقيم أمر العرب ما دام فيها غُمْدانها، وهذا القول هو الذى حض عثمان رضي الله عنه على هدمه، وأثره تل عال مطل على البلاد، قرب الجامع[٨].

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٩.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٩.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٤.
(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٤.
(٥) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٤.
(٦) هذه رواية النويرى، وفى الأصل: «ثلاثة».
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٤ وما بين حاصرتين منه.
(٨) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٥

ومن المبانى التى كانت باليمن القَلِيس، وهى كنيسة بناها أبرهة بصنعاء وأراد أن يصرف إليها حج العرب، ونقل إليها الرخام المُجَزّع، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بِلْقِيس وكان منها على فرسخ، وكان أراد أن يرفع من بنائها حتى يشرف منها على عدن[١].

فلما أهلكه الله تعالى، وفرق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثرت حولها السباع والحيات، وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئًا أصابته الجن، فتخافها الناس، ولم يستطع أحد أن يأخذ شيئًا مما كان فيها من صلبان الذهب والفضة المرصعة بأنواع الجواهر وأصناف الياقوت، وبقيت كذلك إلى زمان أبى العباس السفاح، فذكر له أمرها وما يتهيب من جنها، فلم يرعه ذلك، فبعث إليها من خربها وأخذ ما كان فيها.

وللفرس من المبانى شاذروان تستر، بناه سابور ذوالأكتاف بالصخر وأعمدة الحديد وبلاط الرصاص: جعله سكرا يربو الماء عنده إذا وصل إليه من بين دجيل حتى يطفو عليه ويدخل المدينة لأنها مرتفعة على الأرض، وطول هذا الشاذروان ميل[٢].

وقصر بَهْرَام جُور، قرب همذان، وهو مبنى بالحجارة المهندمة[٣] لا تتبين فصولها، حتى يتوهم من رآه أنه حجر واحد، على كل ركن منه صورة جارية قد برزت من نفس الحجارة[٤].

وقصر اللصوص بقَرْمِيسين[٥]، وهو ذو أبواب شاهقة وأسطوانات محكمة من الحجارة السود التى لا يعمل الحديد فيها شيئًا، والفرس تزعم أنه لا أساطين مثل هذه الأساطين ولم ير أحسن ولا أعجب من أساطين هذا القصر.

ومن مبانى الروم قنطرة سَنْجَة، وهى على نهر عظيم يسمى بهذا الاسم، لا يتهيا خوضه لأن قراره رمل سائل، كلما وطأه إنسان برجله سال، وهو ما بين حصن منصور

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٢.
(٢) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٩.
(٣) فى المطبوع: «المهندسة» والمثبت رواية المخطوط وياقوت، وهَنْدَم الرجل الأشياء هندمة: أصلحها على مقدار مناسب ونظام حسن.
(٤) معجم ياقوت ج ٤ ص ٣٥٦.
(٥) هذه رواية القزوينى فى آثار البلاد ص ٤٣٣ وفى الأصل: «قرميس».

وكَيْسُوم من ديار بكر وهذه القنطرة طاق واحد ما بين جدرانها مائتا خطوة، حجارتها مهندَمة[١]، يكون طول الحجر منها عشرة أذرع فى ارتفاع خمسة أذرع[٢].

ومن المبانى القدم التى بمصر حائط العجوز، وهى دَلُوكا أحد ملوك مصر، وهذا الحائط من العريش إلى أسوان، شاملا أعمال مصر من الجانب الشرقى. وتزعم القبط فى سبب بنائها له، أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه، خافت دلوكا على مصر أن تطمع الملوك فيها، فبنته وزوجت النساء من العبيد حتى تكثر الذرية. ويقال أيضًا فى سبب بنائه: إنها ولدت ولداً فأخذت الرصد لمولده، فرأت التمساح يقتله، فبنت هذا الحائط وقاية له من التمساح، فلما شب الغلام رأى فى مولده ما تحرز عليه منه، فأحب أن يراه فَصُوِّر له من خشب، فلما رآه هاله منظره، واستولى عليه الوهم والفزع فمات[٣].

ومن بناء مصر أيضًا الأهرام التى بأعمال مصر، وهى أهرام كثيرة، وأعظمها الهرمان اللذان بجهة مصر بقرب النيل. يقال: إن بانيهما سُورِيد بن سهلوق بن سرناق[٤] قبل الطوفان.

ويقال ـ إن هرمس المثلث بالحكمة، وهو الذى يسميه العبرانيون أَخْنُخ، وهو إدريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان، فأمر ببناء الأهرام وأن يدع فيها الأموال وصحائف العلوم وما يخاف عليه من الذهاب والدثور. ويقال: إن بانيها جعل لهما أبوابًا على آزاج مبنية بالحجارة فى الأرض، طول كل أزَجٍ عشرون ذراعًا وكل باب من حجر وحديد يدور بلولب، إذا أطبق لم يعلم أنه باب. فَأَزَجُ الشرقى فى ناحية الجنوب، وأَزَجُ الغربى فى ناحية المغرب، يُدْخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت، كل بيت منها

(١) هذه رواية ياقوت والقزوينى فى آثار البلاد ص ٢٧١ والنويرى، ومثلها فى المخطوط، ورواية المطبوع: «مهندسة».

(٢) معجم ياقوت ج ٣ ص ٢٦٤، آثار البلاد ص ٢٧١، نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٣.

(٣) المستطرف ص ٥٤٥، نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٢ وبهامشه: «لم يرض ابن فضل الله بذكر هذه الخرافة فى كتابه، وقد وصف لنا جزءا من هذا السور (انظر مسالك الأبصار المطبوع، ج ١ ص ٢٣٩).

(٤) لم تتفق المصادر على هذه الأسماء، بل كل مصدر يخالف الآخر هذا والثابت الآن تاريخيا بعد الاستكشافات وقراءة الحروف الهيروغليفية أن بانى الهرم الأكبر خوفو، وبانى الهرم الثانى الملك خفرع، وبانى الهرم الثالث الملك منقرع

على اسم كوكب من الكواكب السبعة، وكلها مـقْفَلة بأقفال. وحِذاءَ كل بيت منها صنم من ذهب مجوف، وفى جهته كتابه بالمُسْنَد، إذا قرئت انفـتح فوه فتجد فيه مفتاح ذلك القفل، فيـفتح بهـا، والقبط تزعم أن بالهـرمّ الصغـير الملون قبـورًا، والهرم الشـرقى فيـه سوريد الملك، والهرم الغربى فيه أخوه، هرجيب، وبالهرم الملون أفروهر بن هرجيب.

والصابئة تزعم أن هذه القبور أحدهما قبر غاثمور وهو عند شيث، والآخر قبر هرمس، وإليه تنسب الصابئـة على قول من يزعم ذلك، وهم يحجون إليـها ويذبحون عندها الديكة ويزعـمـون أنهم يعـرفون عند اضطـرابها حـالة الذابح ومـا يريدون من علمـه من الأمـور المغيبة[1].

ورأى هذه الأهرام بعض العقـلاء فقال: كل بناء يخاف عليـه من الدهر إلا هذا، فإنى أخاف على الدهر منه، ونظم هذا المعنى الفقيه عمارة اليمنى فى قوله:

[طويل]:

خَلِيلَـىّ مَـا تَحْتَ السـمـاء بَنِّـيـةٌ
تمـاثل فى إتقـانهـا هَرَمَىْ مِـصْـرِ!
بناءٌ يخَـاف الدهُر منه، وكُلُّ مـا[2]
على ظاهر الدنيـا يَخَـاف من الدهرِ
تَنَـزّه طَرْفـى فى بـديع بـنائهـــا
ولم يَتَنَزه فى المـراد بهـا فِكْرِى[3]

وقال أبو الطيب المتنبى يذكرهما فى معارض الاعتبار[4]:

[الكامل]:

أين الذى الهـرمـان من بُنْيَـانِه؟
ما قـومه؟ ما يومـه؟ ما المَـصْرَعُ؟

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٨ وما بعدها.
(٢) هذه رواية النويرى والمـقريزى. وفى المـخطوط: «بناء يخـاف من الدهر وكلما» وفى المطـبوع: «فليس يخاف الدهر عنه وكلما».
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٠، المواعظ ج ١ ص ١٢١.
(٤) الديوان ج ٤ ص ٢٢٢.

يتـــخلّف الآثار عن أصـــحابهـــا
حـينـا ويُدْركـهـا الـفناءُ فَـتَـتْـبَعُ

وقال أمية بن عبد العزيز[١] رحمه الله:

[طويل]:

بعـيـشك هل أبصـــرت أحـسن منظراً
على طول ما عاينـت من هَرَمَى مِصْرِ؟
أنافـــا بأعـنان الســـمـــاء وأشـــرفـــا
على الجـو إشـراف السُّمـاك أو النَّسـرِ
وقـد وافـيـا نَشْـزا من الأرض عـاليـا
كـــأنهـمـــا ثديان قـــامـا على صـــدرِ

وقال آخر فيهما أيضًا هذه الأشعار[٢]:

[كامل]:

أُنظـر إلى الـهـــرمـــيـن إذْ بَرَزَا
للـعـــين فى عُلْـوٍ وفى صَـــعَـــدِا
وكـــأنمـــا الأرض الـعـــريضـــة إذ
ظمـــئت لفَـــرْط الحـــر والْـوَمَـــدِ
حَـسـسَـــرَتْ عـن الثَّـــدْيَـن بارزةً
تدعـــو الإلـه لفُـــرْقـــة الْـولَدِ
فـــأجـــابهـــا بالنيل يوسِـعـــهـــا
رِيًا ويَـشْـفِـيـهـــا من الكَمَـــدِ

ومن الرسالة لضيـاء الدين بن الأثير[٣] يصفهـا: ولقد شاهدت منها بلداً يشـهد بفضله

(١) الرسالة المصرية ص ٢٦.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩١
(٣) ابن الأثير ولد سنة ٥٥٨ هـ، وأبو حامد الغـرناطى توفى سنة ٥٦٥ أى سن ابن الأثير لم تتجاوز ٦ سنوات تقريبًا عند وفاة أبى حامد، مما يشعر بأن هذا من إضافات النساخ.

على البلاد، ووجدته هو المصرَ، وما عداه، فهو السواد، فما رآه راءٍ إلا ملأ عينهَ وصدره، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدُرْه قَدْره، وبه من عجائب الآثار، ما لا تصفه العين، فضلاً عن الإخبار. منَ ذلك الهرمان اللذان هَرِم الدهر، وهما لا يَهْرَمان، فقد اختص كل منهما بعظم البناء، وسعة الفناء، وبلغ من الارتفاع غاية لا يبلغها الطير على بُعْد تحليقه، ولا يُدركها الطَّرْف على مدة تحديقه، فإذا أُضْرِم برأسه قَبَسٌ ظنه المتأمل نَجْما، وإذا استدارت عليه قوس السماء كان لها سهما.

[أهرام دهشور]

وبدهشور أهرام لم تهرم حجارتها، بناها شدات بن عديم بن البودشير بن قفطيم بن مصريم، بانى مصر.

[ملعب أنصنا]

ومن المبانى القديمة التى بمصر: ملعب أنصنا، وكان مقياسا للنيل، وينسب إلى أشمون بن قفطيم بن مصريم. وبناؤه مدور كأنه بركة، وعليها عمودان بين العمود والآخر مائة خطوة. وكان النيل يدخل إليه من فوهة فيه عند زيادة النيل، فإذا بلغ الحدّ الذى يحصل به الرى، جلس الملك فى مُشْترف له. ويصعد قوم إلى رءوس الأعمدة فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت. فمن زلت قدمه وقع فى البِرْكة[٢].

[مدينة عين شمس]

ومن المبانى التى دَرَسَتْ آثارها وبقيت أخبارها: مدينة عين شمس، وكانت مصرَ فرعونِ موسى. وكان بها هيكل الشمس فخرب. والفُرس تزعم أن هرسيك بناها. وكان قد بقى منها عمودان على رأس كل واحد منهما صورة إنسان على دابة، وعلى رأسيهما شبهُ الصومعتين من نحاس. فإذا جرى النيل[٣]، قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٢.
(٢) نهاية الأدب ج ١ ص ٣٩٣.
(٣) اختلفت المصادر بخصوص هذه العبارة، حيث وردت فى الأصل: «فإذا كان الليل» ولدى البكرى فى المسالك والممالك ج ٢ ص ٦١٣: «فإذا كان آخر الليل» ولدى الكندى فى فضائل مصر المحروسة ص ٣٤: «فإذا جرى النيل» ومثلها لدى ابن زولاق فى فضائل مصر ص ٦٩ وياقوت فى معجم البلدان ج ٤ ص ١٧٩، والقزوينى فى آثار البلاد ص ٢٢٥. وابن عبد الظاهر =

نصف العمود الذى هو مركب عليه. والموضع الذى يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا[١].

وتقول القبط: إن هذين العمودين من بقايا أساطين ملعب لآخر ملوكهم الأوّل. وقد وقع العمودان فى عصرنا بعد الستين وخمسمائة.

ونثرت حجارتهما، ودرست بهما الدور.

ويقول أهل مصر: إن الشمس إذا دخلت دقيقة من [برج] الجدى وهو أقصر يوم فى السنة، انتهت إلى الجنوبى منهما فطلعت على قمة رأسه، ثم إذا دخلت دقيقة من [برج] السرطان، وهو أطول يوم فى السنة انتهت إلى الشمال منهما، فطلعت على قمة رأسه. وهما منتهى الميلين[٢].

[البرابى]

ومن المبانى التى بمصر: البرابى، وهى بيوت حكمة القبط. ويقال: إنه كان بكل كُور من كُوَر مصر بِرْبَاةٌ، يجلس فيها كاهن على كرسى من ذهب.

ومن أعجبها برباةُ إخميم. وهى مبنية بحجر المَرْمر، [طول] كل حجر خمسة أذرع فى فى سمك ذراعين. وهى سبعة دهاليز. يقال: إن كل دهليز [منها] على اسم كوكب، مسقوفة بالحجارة المهندمة المدهونة باللازَورد وغيره، كأنما فرغ منها المُزَوِّق. وجُدْران هذه الدهاليز مصورة بأنواع التصاوير. ويقال: إنها رموز على علوم القبط، وهى: الكيمياء، [والسِّيمياء] والطِّلَّسْمات، والطب. وأهل مصر يزعمون أن ذا النون قد علم الكيمياء منها[٣].

= فى الروضة البهية ص ١٢٠ وعبارته: «فإذا جاء النيل» وذكر محققه بالهامش أن رواية الأصل: «الليل» ولدى المقريزى فى المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٣٠: «فإذا جاء النيل» ولدى السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٧: «فإذا جرى النيل» وقد آثرت الرواية التى وردت فيها كلمة «النيل».

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٣ و ٣٩٤.

(٢) فضائل مصر لابن زولاق ص ٦٩. المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٣٠، بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ١٥ وما بين حاصرتين منه.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٤ والخبر لديه بالنص كما هنا. وما بين حاصرتين منه.

[منارة الإسكندرية]

ومن عجائب مبانى مصر: منارة الإسكندرية، وهى مبنية بحجارة مهندمة مضبَّبة بالرصاص، على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر سَرَطان من نحاس. وفيها نحو ثلاثمائة [بعضُها فوق بعض] تصعَدُ الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها. وللبيوت طاقات يُنْظر منها إلى البحر(١).

وبين أهل التاريخ خلافٌ فيمن بناها، فزعم قوم أنها من بناء الإسكندر بن فليبّس المقدونى، وزعم آخرون أنها من بناء دلُوكا، ملكة مصر(٢).

ويقال: إنه كان على جانبها الشرقى كتابة وإنها نقلت فوجد فيها: بنت هذه المنظرة(٣) فرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب(٤).

ويقال إن طولها ألف ذراع، وكان فى أعلاها تماثيل من نحاس، منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك، يدور معها حيثما دارت، ومنها تمثال وجهه إلى البحر، متى صار العدو مهم على نحو من ليلة سَمِع له صوت هائل يعلَم به أهل المدينة طُروقَ العدو، ومنها تمثال كلما مر من الليل ساعة، صوّت صوتًا هائلاً مطربًا، ويقال إنه كان بأعلاها مرآة ترى منها قُسْطَنْطِينِيّة، وبينهما عرض البحر، فكلما جهز الروم جيشًا رُئى فيها(٥).

وحكى المسعودى(٦) أن هذه المنارة كانت فى وسط الإسكندرية وأنها تعد من بنيان العالَم العجيب، بناها بعض البَطَالمة من ملوك اليونان، بعد الإسكندر، لما كان بينهم وبين الروم من الحروب فى البر والبحر، فجعلوا هذه المنارة مَرْقبًا، وجعلوا فى أعلاها مرآة من الأحجار المُشفَّة، تُشاهَد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رُومية على مسافة تعجِز الأبصار عن إدراكها(٧).

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٥ والخبر لديه بالنص. وما بين حاصرتين منه.

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٥ والخبر لديه بالنص.

(٣) لدى النويرى: «القنطرة» والمَنْظَرَة: المَرْقَبَة. ولدى المسعودى فى بروج الذهب ج ١ ص ٣٧٥ أنها جعلت مرقبا لمن يرد من العدو إلى البلاد.

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٥ والخبر لديه بالنص.

(٥) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٦ والأخبار لديه بالنص.

(٦) مروج الذهب ج ١ ص ٣٧٨.

(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٦ والخبر لديه بالنص.

فاحتال ملك الروم ـ لما انتفع المسلمون بها مثل ذلك ـ على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خَواصِّه، ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام، على أنه راغب فى الإسلام، فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام، وأخرج كنوزاً ودفائن كانت فى الشام مما حمله على أن صدقه، ثم قال له: إن تحت هذه المنارة من الأموال والذخائر والأسلحة، دفنها الإسكندر، فجهز جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية، فهدم ثلث المنارة، وأزال المرآة، ثم فطن الناس أنها مكيدة واستشعر ذلك فيما بينهم، فهرب فى مركب كانت موعودة إليه، ثم بنى ما هدم بالجص والآجر والنورة، وطول هذه المنارة فى هذا الوقت الذى وضعت فيه هذا الكتاب[1] ـ وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، مائتان وثلاثون ذراعًا، وكان طولها قديمًا نحوًا من أربعمائة ذراع[2].

وكان أحمد بن طولون قد بنى فى أعلاها قبة من الخشب ثم هدمت وبنى مكانها مسجداً فى أيام الملك الكامل، صاحب مصر.

ثم إن وجهها البحرى تداعى وكاد أن ينقض فرمّ وأصلح، وكان ذاك فى أيام الملك الظاهر، ركن الدين بيبرس [المنصورى وقال الوجيه] الدورى يصفها:

[طويل]:

وسامية الأرجاء تُهدى أخا السُّرى
ضياءً إذا ما جنْدسُ الليل أظْلَمَا
لَبِسْتُ لها بُرْدا من الأُنس ضافيًا
فكان بتَذْكار الأحبة مُعْلَمَا
وقد ظلَّلتنى من ذراها بقُبَّة
ألاحظ فيها من صَحَابى أنْجُمَا
فَخَيَّلْتُ أنَّ البحر تحتى غمامَةٌ
وأنّىَ قد خيَّمْتُ فى كَبِد السّما[3]!

وكان بالإسكندرية الملعب الذى كان يسمى رواق الإسكندرانيّين، كان الحكماء يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئًا[4].

---

(١) المراد به كتاب مروج الذهب للمسعودى.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٦.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٧ وما بين حاصرتين منه.
(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٨ والخبر لديه بالنص.

صفة منارة الإسكندرية:

التى بناها ذو القرنين عليه السلام، كان علوها أكثر من ثلاثمائة ذراع، مبنية بالصخر المنحوت، مربعة الأسفار، وفوق المنارة المربعة منارة مثمنة مبنية بالآجر، وفوق المنارة المثمنة منارة مدورة، وكانت كلها مبنية بالصخر المنحوت، كل صخرة أكثر من مائتى منّ، وكان عليها مرآة من الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع، كانوا يرون فيها جميع من يخرج فى البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من الإسكندرية، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا هذه المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن، حتى يقع شعاع المرآة بضوء الشفق على السفن فتحترق وهى فى البحر، ويهلك كل من فيها[1].

وكانوا يؤدون الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق تلك المرآة لسفنهم.

فلما استفتح الإسكندرية عمرو بن العاص الإسكندرية احتالت الروم بأن بعثوا جماعة من القسيسين المستعربة، وأظهروا أنهم مسلمون، وأخرجوا كتابًا زعموا أن ذخائر ذى القرنين فى جوف المنارة.

فصدقهم العرب لقلة معرفتهم بحيل الروم وعدم معرفتهم منفعة تلك المرآة والمنارة، وظنوا أنهم إذا أخذوا الذخائر والأموال أعادوا المنارة والمرآة كما كانت.

فهدموا مقدار ثلثى المنارة فلم يجدوا فيها شيئًا، وهرب أولئك القسوس، فعلموا حينئذ أنها خديعة، فبنوها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة.

فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت، فصدئت المرآة ولم يروا فيها كما كانوا يرون، وبطل إحراقها فندموا على ما فعلوا وفاتتهم بجهالتهم منفعة عظيمة.

والنصف الأسفل الذى من عمل ذى القرنين يدخل الإنسان من الباب الذى للمنارة وهو مرتفع من الأرض مقدار عشرين ذراعًا يصعد إليه على قناطر مبنية بالصخر المنحوت على هذه الصورة التى أصورها[2]، فإذا دخل فى باب المنارة يجد على يمينه بابًا آخر،

(٢) المستطرف ص ٥٤٥.

(٢) انظر شكل رقم (٢).

فيدخل منه إلى مجلس كبير مقدار عشرين ذراعًا مربعًا يدخل فيه الضوء من جانبى المنارة على ما أصوره إن شاء الله تعالى، ويجد فيه بابًا آخر يفضى إلى طريق عن يمين الطريق وعن شماله بيوت كثيرة، كل بيت يدخل فيه الضوء من خارج المنارة، ثم يجد بيتًا كبيراً كالبيت الأول وطريقًا مثل الأول فيه بيوت كثيرة مفضية إلى مجلس آخر ثالث كبير مثل الذى قبله، ثم طريقًا كالذى قبله، ثم يفضى إلى مجلس آخر رابع مثل الذى قبله، له باب واحد فيحتاج أن يرجع حتى يخرج من الباب الأول وكثير من الجهال يضلون فيه فيهلكون لقلة بضاعة معرفتهم بذلك الترتيب.

وقد دخلتها مرات كثيرة فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وإذا خرج الإنسان يعود إلى طريق الصعود إلى المنارة فيمشى فى درج المنارة صاعداً، فإذا دار حول العجل مرتين وجد أيضًا بيتًا مثل الأول وبيوتًا صغاراً، وفى كل ركن بيتًا كبيراً كما ذكرته قبل هذا، وهى من عجائب الدنيا وهذه، صورتها وصورة المطلع إلى بابها كما ذكرته.

وقد عملت الجن لسليمان عليه السلام فى الإسكندرية مجلسا من أعمدة الرخام الأحمر الملون بأنواع الألوان الصافى كالجزع اليمانى المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان فيها يرى من يمشى خلفه لصفائها[1]. وعدد الأعمدة ثلاثمائة أو نحوها، كل عمود ثلاثون ذراعًا على قاعدة من رخام، وعلى رأسه قاعدة أخرى من رخام فى غاية الإحكام، وفى وسط ذلك المجلس عمود من رخام طوله مائة ذراع وأحد عشر ذراعًا ملونًا كسائر الأعمدة، وكان قد قطعت الجن سقف ذلك البيت الذى هو مجلس سليمان من حجر واحد أخضر مربعًا، فلما بلغهم موت سليمان عليه السلام ألقوه على جانب النيل فى آخر ولاية مصر.

ومن جملة تلك الأعمدة التى فى مجلس سليمان عمود رأسه يتحرك شرقًا وغربًا بطلوع الشمس وغروبها، يشاهد حراكها الناس ولا يدرون ما سبب حركته.

وكذلك فى قسطنطينية أيضًا منارة من الصخر على أربعة أعمدة من الرخام، يتحرك أيضًا شرقًا وغربًا يشاهد حركتها الناس، ترتفع قاعدتها من جانب إلى جانب آخر، فيدخل الناس أنواع الآجر والخزف والحجارة تحت القاعدة، فإذا مالت عليه سحقته. يفعل الناس ذلك كل يوم، ولا يدرى ما سببه إلا الله تعالى، وهى حكمة عجيبة.

---

(١) المستطرف ص ٥٤٦.

وفى مصر بموضع يقال له عين شمس منارة مربعة علوها مقدار مائة ذراع من الرخام المجزع الصافى قطعة واحدة محددة الرأس على هذه الصورة[١]، على قاعدة من الرخام كالبيت، وعلى رأسها غشاء من صفر كالذهب حسنا فيه صورة إنسان على كرسى مستقبل مشرق الشمس، ويخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر ماء يسيل على ذلك الحجر إلى أن ينتهى مقدار عشرة أذرع فى رؤية العين، وقد نبت من ذلك الماء على ذلك الحجر شىء أخضر كالطحلب يراه الناس ولا يبرح لمعان الماء على تلك الصخرة أبداً صيفًا وشتاء[٢].

وقد رأيته مرات، وأهل مصر يقولون: ما زلنا نرى هذا الماء صيفًا وشتاء لا ينقطع ولا يصل إلى الأرض منه شىء، وهى من العجائب.

وفى الجانب الغربى من مصر بنيان يعرف بالأهرام مربع الجملة مثلث الأوجه على هذه الصورة[٣]، وعددها ثمانية عشر هرمًا.

وفى مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة أهرام أكبر هذه الثلاثة دورة ألفى ذراع، فى كل وجه مائة ذراع، وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى يشاهدها وفتح منها هرمًا واحداً اليها حجارة، وكل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعًا فى غلظ عشرة أذرع، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ما لا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقًا صغيراً على إحكامه.

ومنها عند مدينة فرعون يوسف عليه السلام أهرام أعظم وأكبر، كل واحد منها دوره ثلاثة آلاف ذراع، وعلوه سبعمائة ذراع من حجارة لا يصنع الحديد فيها شيئًا لقوتها كل حجر خمسون ذراعًا.

وعند مدينة فرعون موسى عليه السلام أهرام أخر أكبر وأعظم مما قبله، وآخرها هرم يعرف بهرم هيدوم كأنه جبل على هذه الصورة، خمس طبقات الطبقة الفوقانية كأنها قلعة على جبل.

---

(١) انظر شكل رقم (٣).

(٢) آثار البلاد ص ٢٢٥.

(٣) انظر شكل رقم (٤).

والهرم الذى فتحه المأمون[١] غلظ حائط الهرم الذى فتح فيه البـاب أحد عشر حجرًا، كل حجر عرضه عشرون ذراعًا.

ولقد دخلت فى ذلك الـهرم وفى داخله قبـة مربعة الأسـفل مدورة الأعلى كبـيرة فى وسطها بئر عمقها مقدار عشـرة أذرع، وهى مربعة ينزل الإنسان فى تلك البئر فيجد فى كل وجه من تربيع البئر بابًا يفضى إلى دار كبيرة، فيها موتى من بنى آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مـائة ثوب، على كل واحد منهم، قـد اختـرقت من طول الزمان واسـودَّت، وأولئك الموتى أجسادهم مـثلنا ليـسوا طوالاً، يقال إنهم وضعوا هناك فـى زمان إدريس عليه السلام صيانة لأجسادهم عن الطوفان الذى كـان بعدهم فى زمان نوح عليه السلام، ولم يسقط من أجسادهم ولا من شعورهم شىء، وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض أو فى شعره شيب البتـة، وهم أجساد كثـيرة جدًا وأجسـادهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل منهم عـضوا من أعضائهم، ولكنهم قد خفوا حتى صاروا كالغثاء خفة لطول الزمان.

وخاصية أرض مصر أن الـموتى لا يبلون تحت الأرض من أى حيوان كان، وفى تلك البئر أربعة من الدور مـملوءة بأجساد الموتى، وفى تلك البئر فى كل وجه من تربيـعة البئر يدخل إلى دار من تلك الدور وفيـها من الخفـاش ما لا عدد له، وإنمـا يدخل الإنسان إلى تلك الدار بالمشاعل والنفط والحـشيش اليابس، يشدونه حزمًا كالشـمع ويشعلون فيه النار لأجل الخفـاش، لأنهم إذا دخلوا بالشمع والسرج أطفـأتها الخفافـيش بأجنحتها لكثـرتها، يلقون أنفسـهم على النار يطفونها وكانوا يدفنون أيضًا جميع الحيوان فى الرمال.

ولقد وجدت يومًـا ثيابًا كثيرة مـلفوفة حزمة مـقدار أكثر من مائة ذراع، وقـد اخترقت تلك الثياب من كثرة ما لها من السنين فأزلت تلك الثيـاب المخترقة إلى أن ظهر تحتها خرق صحاح قوية بيض من كتـان أمثال العصائب، فيها أعلام مـن الحرير الأحمر، وفى داخلها هدهد ميت لم يتناثر من ريشه ولا جسده شىء، كأنه قد مات الآن.

وفى القبة التى فى الهرم باب يفضى إلى علو كـأنه سيب الرحى الذى ينصب فيه الماء على الرَّحى عال لا يرى أعلاه، وليس فيه درج، وعرضه خـمسة أشبار أو نحوها، يقال إنه صعد فيـه فى زمان المأمون فأفضوا إلى قـبة صغيرة، ووجدوا فيهـا صورة آدمى من حجر

(١) انظر شكل رقم (٥).

أخضر كالدهنج، فأخرجوا تلك الصورة إلى المأمون فوجدوها مطبقة كالدواة ففتحوها فوجدوا فى ذلك جسد آدمىٍّ عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجوهر وعلى صدره نصل سيف لا قائم له عند رأسه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة، يضىء كالمصباح أو لهب نار، فأخذه المأمون وقال هذا: خير من خراج الدنيا ألف سنة.

وقد رأيت ذلك الصنم الذى أخرج منه ذلك الميت ملقى عند باب دار الملك بمصر، وهو دار السلطان الذى كان بها فى زمانه فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وفى أعلى مصر مدينة يقال لها إخميم[1]، وإخميم أخو الملك مصر بن القبط بن حام، بنى مدينة تعرف به وتسمى باسم الملك إخميم، وهى من عجائب الدنيا، مبنية بالصخر المنحوت، لها أربعة أبواب، يدخل الإنسان من بابها فيجد بيتًا كبيراً مبنيًا مربعًا من الصخر المنحوت، وله أربعة أبواب من أى باب خرج وجد بيتًا مثله له أربعة أبواب، يخرج من بيت إلى بيت، آلاف من البيوت مظلمة لا يدخلها شمس ولا قمر ولا يرى فيها موضع يدخل منه ضوء إلا من الباب الذى دخل منه حتى يخرج إلى المدينة، وإنما يدخلها الناس مع أقوام من أهل تلك الناحية الذين يعرفون كيف يخرجون منها لكثرة ما دخلوا فيها، ويدخلون ومعهم المشاعل والسرج والنار ويصعدون فى مواضع فى حيطانها درجات فيصلون إلى بيوت أخر كالغرف فوق هذه البيوت على صورها وقدها وعرضها وطولها، لا يسكنها أحد ولا يدرى لأى شىء بنيت والله أعلم. وهى من عجائب الدنيا.

ورأيت فى قصر فرعون موسى بيتًا كبيراً من صخرة واحدة خضراء كالآس، فيه صُوَرُ الأفلاك والنجوم ما لم يشاهد عجبًا أحسن منه.

وفى مصر وغيرها من أنواع البنيان وعجائب الآثار ما لا يمكن إحصاؤه، وإنما أذكر يسيراً من كثير.

وفى الشام حصن بعلبك، على أعمدة من الصخر كل عمود كقطعة جبل وعليها قلعة مبنية بحجارة مربعة، الحجر مائة ذراع وأكثر وأقل، قد رفعت فى الهواء مما صنعته الجن لسليمان عليه السلام.

---

(١) انظر فى مدينة إخميم: نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٤، المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٣٩.

وفى مدينة تَدْمُر من عجائب البنيان أمر عجب كثير.

وفى مدينة حِمْص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا، فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والمخازن والماء الجارى فى كل طريق من طرقها[1]. حدثنى بذلك جماعة من أهلها ممن دخلوها وشاهدوها.

وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها اللجأة، فيها من البنيان ما يعجز عن صفته ألسن العقلاء، كل دار مبنية من حجارة الصخر المنحوت ليس فى الدار خشبة واحدة، أبوابها وسقوفها وغرفها وبيوتها من الصخر المنحوت الذى لا يستطاع أن يعمل من الخشب على إحكامها، فى كل دار بئر ورحى، وكل دار منفردة لا يلاصقها دار أخرى، كل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف أهل تلك الرساتيق من الإفرنج دخلوا فيها، كل إنسان فى دار بجميع عياله وخيله وغنمه وبقره ويغلق بابه ويجعل خلف باب الدار حجارة لا يقدر أن يفتح ذلك الباب لإحكامه، وهو من الصخر أقوى من الرخام فيها أكثر من مائتى ألف دار فيما يقال.

وقد سمعت ذلك من جماعة من أهل حوران، لا يدرى من بناها، وتسميها العرب اللجأة، لأنهم يلتجئون إليها عند الخوف[2].

وفى أرض بغداد تل مبنى باللبن والقصب يعرف بتَل عَقَرْقُوف وعقرقوف ملك كبير من ولد سام بن نوح عليه السلام من أولاد أولاده، وقد أودع فى ذلك التل من أنواع العجائب والكنوز ما لا يحصى، وقد صح ذلك بطريق النقل المستفيض، وقد قصده عدة ملوك فارس ولم يتعرضوا إليه بهدم ولا يقدرون على هدمه، وكل من قصده ليهدمه يصرف الله تعالى عزيمته عن هدمه ويهوّله عليه بحيث لا يلتفت إليه، وهذا لا ينبغى أن ينكر فلكل مال صاحب لا يأخذه غيره.

وقد أصابنى مثل هذا، كان لنا فى المغرب قرية فيها دور وبساتين، وكان فيها قراح على قارعة الطريق بقرب الدار التى كنا نسكنها زمان الربيع والصيف والخريف، وكان فى القراح قطعة بيضاء بقدر خمسة أذرع فى ذراعين كأنها جص كنا نسميها الكنز، وذلك اسم شائع لذلك القراح منذ ملكه المسلمون، كنا نقول: هذا قراح الكنز، فلما كان قبل الخمسمائة عام جاءت الثلوج فى تلك الشتوية كثيرة جداً فقالوا: إنه نزلت هناك قافلة بالليل

(١) المستطرف ص ٥٤٦.
(٢) المستطرف ص ٥٤٦.

واحتفروا ذلك الموضع فوجدوا صندوقًا من رخام طول خمسة أذرع فى عرض ذراعين عليه لوح رخام، ففتحوه وأخذوا ما كان فيه، ولما كان زمان الربيع ظهرت تلك الحفيرة لما ذابت الثلوج فبقينا فى حسرة، ولا شك أنه كان فيه مال والله أعلم، ولكن لكل دفين صاحب لا يأخذه غيره.

ومن عجائب البنيان إيوان كسرى، مبنى من الآجر والجص عرضه ست وثلاثون خطوة وطوله أربع وستون خطوة، وعلو أرجه سبعون ذراعًا، وإلى أعلى الشرفات مائة وخمسون ذراعًا، وقد انشق أعلاه عرضًا وسقطت منه أربع عشرة شرّافة، ليلة ولد النبى ﷺ.

ودخلت إلى مدينة أبهر سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ونزلت عند القاضى الإمام أبى اليسر عطاء بن نبهان، وكان من أصحاب الشيخ الإمام أبى إسحاق الشيرازى، وكان رحمه الله عالمًا فاضلا صالحا كريما، فتذاكرنا يومًا عجائب الدنيا فقال: إن فى أرضنا عجبًا لم يشاهد مثله، عندنا قلعة تسمى أروشان، فيها جبل يقال له كوه رستم، فيه غار يسمى غار رستم، فى أعلى الغار ثقب كفم كور إذا دخل الإنسان إلى الغار يجد فى ذلك الثقب حزمة من قضبان عددها خمسة عشر قضيبًا، لا يدرى من أى خشب هى، مشدودة بخيط لا يدرى من أى شىء هو، وإذا حللت تلك العقدة لا يقدر أحد يعقد مثلها، وإذا أخذ الإنسان تلك الحزمة وخرج بها من الغار سقطت حزمة أخرى، وإن أخذها ألف مرة وأخرجها من الغار سقطت غيرها، فقلت: ليس الخبر كالمعاينة، فلما رأيت ذلك العجب قلت: ناولنى أنت هذه الحزمة واكتب لى بخطك هذه الحكاية والمناولة ففعل رحمة الله عليه وعندى خطه، وما زال كل من سمع ورأى القضبان من كبار الأئمة يأخذ منها قضيبًا حتى بقى عندى واحد، فقسمته بينى وبين من كنت أحتشمه وأخذ الخيط أيضًا.

وكان القاضى أبو اليسر يقول: هذه من كرامات الصوفية، لأن هذه القضبان لا تصلح إلا للقوّالين فى السماع وفى كل خانقة من أبهر ونواحيها من تلك القضبان كثير، وهى من عجائب الدنيا، وذلك الغار فى جبل عال كله صخرة واحدة لا يجد الإنسان سبيلاً أن يصل إلى أعلى ذلك الغار، ولا يدرى من أين حفر ولا كيف حفر، وظنى أنه من عمل الجن بأمر سليمان عليه السلام.

ورأيت فى أردبيل حجراً فى الميدان أسود له طنين كالفولاذ له محك كمحك القلعى الرصاص، وهو على صورة كلية البقرة[١]، فيه أكثر من مائتى منّ، وخاصيته إذا عدم المطر جعلوه على عجلة وأدخلوه مدينة أردبيل فينزل المطر ويدوم حتى يخرج ذلك الحجر إلى الميدان، فإذا خرج سكن المطر وهو من عجائب الدنيا[٢]، والله أعلم.

وفى بلاد دَرْبَند باب الأبواب أمة يقال لهم الطبرسلان[٣]، فيهم أربعة وعشرون ألف رستاق، فى كل رستاق سرهنك كبير كالأمير، وهم مسلمون أسلموا فى زمان مسلمة بن عبد الملك لمَّا بعثه هشام بن عبد الملك حين ولى الخلافة، ففتح باب الأبواب فأسلمت على يده أمم كثيرة منهم أيضًا اللكز والفيلان والخيذاق والزقلان والغميق والدرهاة.

وفيهم فى تلك الجبال سبعون أمة لكل أمة لسان، فلما أراد مسلمة الرجوع بعدما أسكن فى دَرْبَند أربعة وعشرين ألف بيت من العرب من الموصل ودمشق وحمص وتَدْمُر وحلب وسائر بلاد الشام والجزيرة، قال له الطبرسلان: أيها الأمير، إنا نخاف إذا انصرفت عنا أن ترتد هذه الأمم ونشقى فى مجاورتها، فأخرج مسلمة سيف نفسه وقال: سيفى بينكم اتركوه هاهنا، فما دام بينكم لا يرتد من هذه الأمم أحد، فعملوا لسيفه كالمحراب من الصخر وأقاموه فى داخله على تل حيث كان نازلاً، وهو الآن باق فى تلك الأرض يزوره الناس ومن قصد إليه إن كان فى الشتاء لم يمنع من لبس الثياب الزرق وغيرها، وإن كان فى وقت الحصاد يمنع أن يزوره أحد إلا بثوب أبيض، فإن زاره بغير ثوب أبيض جاء المطر الكثير فيهلك الزرع وتفسد الفواكه، وهذا الأمر مستفيض عندهم.

وبالقرب من دَرْبَند جبل عظيم فى أسفله قريتان فيهما أمة يقال لها زردية[٤] كاران، يعنى صناع الدروع، يتخذون الآلات جميعها للحروب من الدروع والجواشن والخوذ والسيوف والرماح والقسى والنشاب والخناجر وجميع أنواع آلات النحاس[٥].

---

(١) انظر شكل رقم (٦).

(٢) آثار البلاد ص ٢٩١ نقلا عن المؤلف.

(٣) لدى ياقوت ج ١ ص ٣٠٣: «طَبَرْسَران».

(٤) فى آثار البلاد ص ٥٩٥: «زره كران».

(٥) آثار البلاد ص ٥٩٥.

جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم وعبيدهم وإمائهم يتخذون هذه الصنائع كلها، وليس لهم حرث ولا بساتين، وهم أكثر الناس خيراً ومالا يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق، وليس لهم دين ولا يعطون جزية، وإذا مات لهم ميت إن كان رجلاً سلموه لرجال في بيوت تحت الأرض يقطعون أعضاء الميت وينقون عظامه من اللحم والمخ ويجمعون لحمه فيطعمونه للغربان السود، ويقفون بالقسى يمنعون غيرهم من الطير أن يأكل من لحمه شيئًا.

وإن كانت امرأة سلموها إلى رجال تحت الأرض يخرجون عظامها ويطعمون لحمها للحدأة، ويقفون بالنشاب يمنعون غيرها أن تدنو من لحمها[1].

وقد قلت للأمير الأسفهسلار عبد الملك بن أبي بكر في دربند: كيف يتركون هذه الأمة لا يسلمون ولا يؤدون جزية ولا خراجا؟ فقال: لهم حسرة الملوك وقد أمرني الأمير سيف الدين محمد بن خليفة السُّلَمي صاحب دربند رحمه الله، وكنت رأيته وأكرمني جازاه الله خيراً قال: فخرجت فجمعت أمما من الأتراك وغيرهم، وخرج الأمير في أهل دربند وجاءت الأمم من الجبال: اللكز والفيلان وغيرهم، فكنا في عسكر كالبحر وقصدنا تلك القريتين، وليس لهم حصن ولا قلعة، فأغلقوا أبوابهم.

فأنا أول من دخل القرية الواحدة، فخرج من تحت الأرض جماعة رجال ليس عليهم سلاح فوقفوا وأشاروا بأيديهم إلى الجبال وتكلموا بكلام لم أفهمه، ثم غابوا تحت الأرض فأصابنا من الريح الباردة والثلج العظيم بحيث ما نبصر شيئًا، وكأن السماء سقطت علينا ثلجًا وبردًا، فانصرفنا ولا ندرى أين نذهب لا أنا ولا غيرى، وقتل بعضنا بعضًا بصدم الفرس القوى للفرس الضعيف فيقع هو وراكبه فيمشى عليه الناس فيهلك هو وفرسه.

قال: وضربني من لا أعرف بنشابة في منكبي الأيسر فخرجت من تحت إبطي فكدت أن أهلك، وتماسكت حتى بعدنا عنهم فراسخ وانكشف عنا ذلك الثلج والريح والبرد، وفقدنا من العسكر خلقًا كثيراً، فأخرجت النشابة من منكبي وبقيت منها مريضًا أربعة أشهر.

ولم نقدر أن نأخذ منهم رغيفًا واحداً ولا قاتلنا منهم أحداً، وما ذاك إلا سحر من أولئك الرجال الذين يخرجون عظام الموتى ويجعلون عظامهم في أكياس الأغنياء

(١) آثار البلاد ص ٥٩٥.

والسادات. أكياسهم من الديباج المذهب أو الرومى والعبيد والإماء فى الخام[١] وشبهها من الثياب ويعلقونها فى البيت ويكتبون على كل كيس اسم صاحبه، وهذا عجب عظيم.

وفى قرب خوارزم جبل عليه قلاع كثيرة[٢] وله رساتيق، وهو جبل عظيم طويل يمتد فى بلاد الكفار إلى أن يصل إلى بلخشان، وبالقرب من خوارزم فى ذلك الجبل شعب فيه تل على ذلك التل قبة كبيرة لها أربعة أبواب آزاج كبار فيها من لبنات الذهب الأحمر منضّدة بعضها على بعض ما لا يعد ولا يحصى ملء أرض ذلك الموضع ذهبًا هو كالقبة التى على ذلك التل يكون علوّ الذهب فى رؤية العين أكثر من خمسة أذرع، وحول ذلك التل الذى عليه الذهب ماء راكد كدر لا مادة له إلا من المطر والثلج يظهر أرضه عليه غثاء لا يقدر أحد أن يعبره، إن دخله أحد اختلط وغاص ولم يقدر أن يخرج منه أبدًا، وإن ألقى فيه زورق غاص فى ذلك الماء، وأى شىء ألقى فى ذلك الماء ذهب ولا يقدر أحد على إخراجه.

وقد جاء إليه محمود[٣] صاحب غزنة وأقام عليه ثلاث سنين لم يترك أحدًا من أهل الرساتيق وأهل خوارزم وجميع عسكره إلا حملوا إليه التراب والخشب والقصب والحجارة والزواريق، فغاص الجميع فى ذلك الماء ولم يؤثر، فانصرف عنه آيسا، وهذا من عجائب الدنيا.

وقد عبرت من بلد سخسين بأرض الخزر والترك إلى خوارزمشاه ثلاث مرات، ورأيت ذلك الموضع وهو من عجائب الدنيا، وقد أقام علاء الدولة خوارزمشاه أربعين سنة يحتال فى أمره بكل حيلة فلم يستطع له حيلة.

وقد حدثنى بعض علماء خوارزم بها، قال: جاء رجل من رستاق خوارزم فدخل بسوق الجوهر وأخرج قطعة زمرد فائق ما رأى أحد مثلها، فأخذه الجوهريون وحملوه إلى خوارزمشاه، وقالوا: يا مولانا هذا الرستاقى جاءنا بهذه القطعة التى ما حسبنا أن فى الدنيا مثلها، فسأله خوارزمشاه بعد ما أنّسه وأمنه وأحسن إليه وخلع عليه وطيّب قلبه، وقال له:

---

(١) الخام من الثياب: الذى لم يُقْصَر. ويوصف به، فيقال: ثوب خام.

(٢) انظر فى هذا الخبر: آثار البلاد ص ٥٢٦.

(٣) انظر فى هذا الخبر: آثار البلاد ص ٥٢٦.

أين وجدت هذه القطعة؟ فقال: ذهبت لأنظر موضع ذلك الذهب فرأيت بالقرب منه قبة خضراء مبنية بحجارة مثل هذه الحجارة عالية كبيرة، فدخلت فيها فرأيت بها قبراً عظيمًا عليه ضريح مبنى بحجارة وألواح مثل هذه القطعة، وعلى الضريح قصاع كبار وأوانى عظام من جنس هذه القطعة لم أقدر أن أحمل منها واحدة لثقلها، ولم أجد فيها أخف من هذه فأخذتها وجئت بها، ولا أدرى ما هى، وقد علَّمت على باب القبة علامات، وجمعت عند كل باب تلا من الحجارة.

فقام خوارزمشاه وركب فى خواصه وأصحابه وحملوا الرستاقى معهم فوصلوا إلى الموضع فرأوا الموضع والعلامات كما قال ولم يروا القبة، فقال خوارزمشاه: هذه من أعمال الجن يحفظ الله بهم هذه الأموال حتى يأتى من قدَّرها الله عز وجل له، وهذه أيضًا من عجائب الدنيا، وكم فى الدنيا من عجيب أعجب، وأعظم مما ذكرناه ولم نصل إليه ولم نسمع به، وفيما ذكرنا كفاية لذوى الألباب، والحمد لله على نعمه وإحسانه وفضله وامتنانه.